محمد بن علي الخطيب

موسيقي من اربيل

زبير بلال اسماعيل
اربيل في 1984/6/6

تجذب الموسيقى النفوس بانغامها ، وتسترعي الأسماع برنات اوتارها ، وجميل الحانها ، تشتاقها النفوس ، وتميل اليها بطبعها . ويعد التباعد عنها خروجاً بالنفس عما تنزع اليه . وإذا كانت قواعد الموسيقى ترمي الى التدريب على الأخلاق الفاضلة والأرشاد الى خير المطالب ، فان الناس لايسيرون على نهج بعينه وإنما إستغلوه للوجهة التهذيبية وعكسها .

والموسيقى قديمة في البشر لايدرك أولها ، وجدت من حين وجدوا ، تشير الى قدمها قصص جاءت في التاريخ القديم . تورد كأساطير للدلالة على هذا القدم . وتتفاوت الأمم في الأخذ بها بالنظر لحضارتها ورفاهها ورقه شعورها . ولاتخلو أمة منها ، وتعد من الفنون الجميلة . وأصل الموسيقى في العراق يرجع الى عهد بعيد جداً ، قبل العصور الأسلامية بكثير . وإن الآثار المكتشفة تعين ماللسومريين والاكديين من موسيقى في العراق . ومن جملة المكتشفات القيثارة الذهبية وهي مصنوعة من الخشب المزين بالفسيفساء يزينها رأس ثور من الذهب ، عثر عليها في إحدى مقابر أور الملكية[1] . ولاينكر إن لكل شعب تقاليد موسيقية . والغناء قديم ، لاتخلو أمة من الميل اليه ، وآلاته جاءت مصورة في الآثار القديمة ، وجد في العراق من حين وجدت حضارته[2] ، وكان معروفاً عند العرب ، ولماظهر الأسلام إتصل بأمم عديدة ، فاقتبس المسلمون ضروب الغناء[3] . وإذا دققنا النظر في الموسيقى العراقية عامة راينا فيها مايشير الى إرتباطها ، في بعض الحانها وانغامها وإصطلاحاتها الفنية وأسماء آلاتها بما كان عند الشعوب التي دخلت الأسلام . فالصلات الثقافية بدأت تتعاظم بين الشعوب الأسلامية . وقد وسعت موسيقى هذه الشعوب ناحية من نواحيها أو أثرت بمصطلحاتها ، ولكنها في الأخير دخلت أو ذابت فيها بالرغم من انها كانت في سالف أيامها لها طابعها الخاص بها[4] .

وبذلك روعيت الأنغام الجديدة ، وتنوع الغناء ، وزاد ما كان عليه ، وظهرت أصوات جديدة ، وإستخدمت بعض الالات . والموسيقى من الناحية العملية خاصة بالغناء وتعين صنوف الالحان في نغمها وإيقاعها[5] وبطبيعتها ، أو بالصناعة بواسطة الالات ، والالحان تعينها النغمات وأحوالها ، وتدور هذه على الأصوات وتأثيرها في النفس بترتيب . والصوت يجري من الالحان مجرى الحروف من الكلمات . وبسائط الأصوات (17) نغمة وأدوارها (84)[6] إشتقت الموسيقى من الشعر والغناء به ، أو أنها ذات علاقة بالتقاطيع الشعرية وأوزان العروض ونبراتها ، وتعد أصل الغناء ، أو أن الغناء ساق الى تقطيع الشعر . والمشاهد إن الشعر والغناء باتصال غير منفك . وليس الغناء الا إمتداد الأصوات وتلحينها من يوم بدأ الشعر ، وعرف البسيط منه ، ثم تعددت الأوزان وتكاملت فتبعها الغناء ، أوصار يتنوع في أصواته كذلك . ولم ندرك من قديمه (أي الشعر) الا الرجز[7] ، وماهو معروف بالحداء . فتكاثرت بحور الشعر الواحد تلو

الأخر ، فصار يتغنى بها تبعاً لما تغير به الشعر كما لحقت نغمات أو أصوات بامتداد أو قصر . وقال إبن خرداذبه (ت فى حدود 300 هـ) في كتابه (في اللهو والملاهي) المفقود ، والذي نقل نبذة منه السعودي الى مروج الذهب : (ثم إتخذ الرعاة والاكراد نوعاً مما(6) يصفر به فكانت اغنامهم اذا تفرقوا صفروا ، فاجتمعت) . مروج الذهب ، طبعة باريس ج 8 ص — 84 ¾ 89 ويبدو ان المقصود بهذه الآلة الموسيقية هو (الناي) . وكما ذكرنا فان كل امة لاتخلو من موسيقى خاصة بها ، ومع ذلك تتأثر بموسيقى الشعوب الأخرى عن طريق الاتصال بالفتوح والحضارة ، فيأخذ البعض الحاناً من الأمم الأخرى ، وتتنوع بذلك طرقهم في التجدد . وقد ولد الاتصال الحضاري ظهور عدد من الموسيقيين والمغنين من بلاد مختلفة ، تحركوا في إطار موسيقى واحدا متناغم وصاغوا قوالب موسيقية مشتركة . وقد لمعت في الموسيقى أسماء منسوبة الى مدن كردية ، كان عطاؤها إيجابياً وإضافة نوعية في الموسيقى . ومن هؤلاء صفى الدين الأرموى (نسبة الى مدينة أورمية) وهو عبدالمؤمن بن يوسف بن فاخر . وكان موسيقاراً وشاعراً وأديباً . ولد صفى الدين في نحو سنة 613 هـ / ، 1216 م وتوفي ببغداد سنة 693 هـ واشتهر الأرموى في أول أمره بالخط والكتابة ، ثم لازمته مهمة الخط والانشاء حتى بعد إشتهاره كموسيقار . ومن مؤلفاته الموسيقية (كتاب الأدوار) ويبحث في الأنغام . ويعرف النغمة بأنها : (صوت لابث زماناً ما على حد ما من الحدة والثقل ، محنون اليه بالطبع) . وله (الرسالة الشرفية في النسب التأليفية) وتبحث في تكون الصوت واهتزاز الاوتار في الالات المصوته ، ونسبة إرتفاع الأصوات الى أبعاد الأجسام المحدثة للصوت ، وتغير الصوت بتغير أطوال الأوتار في الالات الموسيقية . وله أيضا رسالة الايقاع[7] .

وكمال الدين أبو بكر التوريزي ؛ وكان متقناً للموسيقى علماً وعملاً ، مجيداً في صناعة الغناء ، لايجارى ولايبارى ، عاصر المغول . وهو الذي إستنبط هذا الغناء الذى يغنى به الى اليوم وسمي (البيشرون) ويعرف بـ (بيشرو) ؛ وهو أنغام تطول على إمتداد بيت الشعر ، ويغنى فيه أيضاً كلام لايحصر بوزن أو قافية[8] .

وجمال الدين الداسني (اليزيدي) ؛ وكان من أشهر المغنين وإسمه الكامل هو : عمر بن خضر بن جعفر زاده الكردي الداسني ، جمال الدين أبو سعيد الشرفي . درس الموسيقى ببغداد . توفي في حدود 800 هـ / 1397 م . وكان والده قد إتصل بهولاكو ثم سخط عليه فقتله وباع أولاده فاشترى الصاحب شرف الدين هارون الجوينى[9] (عمر) هذا وهو صغير جداً ، فاجتهد عمر حتى فاق في الغناء . وكان مجلس الجويني يغشاه من أهل الغناء كثير من المغنين والموسيقيين مثل عبد المؤمن ، والزين إبن البرهان الموصلي ، وحسن الناي وسعد الدين السليكو (السيلكو) والبدر الأربلي وابو بكر التوريزي ، وكانوا كلهم أئمة في هذا الشأن .

إتصل الداسني بملوك ماردين وبصاحب حماة ، وانتهى الى مصر ، ثم أصيب في عينه في بعض الوقائع . فرتب له سلطان مصر مرتبا يقتات به ، وقنع بعد الخبز بالفتات . وللداسني كتاب إسمه : (الكنز المطلوب في علم الدوائر والضروب)[10] .

والخواجه عبدالقادر المراغي (نسبة الى مراغة) أبو الفضائل كمال الدين . ولد سنة 754 هـ / 1354 . أدرك العهد الجلائري ثم عاش في كنف (آل تيمور) بعد سقوط الدولة الجلائرية في حدود 1410 م كان المراغي من اكابر أساتذة الموسيقى والعلم الرياضي . إستخرج الحاناً غريبة ، فكان أشهر الموسيقيين في عصره ، كاد يقارب في شهرته صفى الدين الأرموى . وبعد وفاة تيمور لنك لازم السلطان شاهرخ وبقي في خدمته الى سنة 838 هـ / 1434 م فحدث الطاعون في التاريخ المذكور فأصيب به وتوفى . له مؤلفات عديدة في الموسيقى منها : (جامع الالحان) و (كتاب الموسيقى) و (زبدة الأدوار) و (شرح الأدوار) و (كنز الالحان في علم الأدوار)[11] .

بدر الدين الأربلي : محمد بن علي الخطيب

هو بدر الدين أبو المعالي محمد بن على الخطيب الشافعي إبن أحمد الأربلي : كان من أساتذة الموسيقى وأكابر رجالها ، من أساتذة الداسني المتقدم ذكره على مانقله صاحب المسالك (إبن فضل الله العمري المتوفى سنة 749 هـ / 1348 م ولد بدر الدين سنة 686 هـ / 1287 م ، وكان ذكياً ، سريع الحفظ شرح الكافية[12] ، وله حواش على الحاوى وعلى التسهيل ، وله نظم ونثر . ذهب الى مصر رسولاً من ملك الموصل فأقام بها خمسين يوماً ، ورجع فأخذ عنه أبو المعالى إبن رافع . ذكره في (ذيل تاريخ بغداد[13]) وأثنى عليه ... وهو القائل :

وقد شاع عني حب ليلى وانني كلفت بها شوقاً وهمت بها وجداً
و والله ماحبى لها جاز حده ولكنها في حسنها جازت الحدا

وجاء ذكره مقروناً بحياة الداسني . ولم يتعرض البعض من المؤلفين كصاحب الدرر الكامنة[16] لاثره في الموسيقى ، ومن مراجعة ترجمته نعلم : إنه أديب عالم ، عرف بأثره : (أرجوزة الانغام) كان نظمها في سنة 729 هـ / 1329 وعنى بها عناية زائدة أبدع في صنعها ؛ قليلة اللفظ ، سهلة الاستظهار ، موجزة ، عدد أبياتها (101) . وكأنه أراد من هذه الأرجوزة أن تشيع الأنغام الموسيقية فأوجزها في هذه الأرجوزة .

وكانت الأنغام والالحان سابقاً تؤخذ من مؤلفات الصفي الأرموى ، أو بطريق التلقي العملي ، ومن أفواه الرجال فقرّب الأربلي الأخذ ، وسهل الحفظ .
جمع الأربلي في الأرجوزة المهم من هذا الفن الملتمس . وهذه الأرجوزة نشرت باسم : (جواهر النظام في معرفة الأنغام)[16] .
وقيمة هذه الأرجوزة تعرف من إهتمام العلماء بها ، ومن شروحها (برء الأسقام شرح قصيدة الأنغام) . قال في مقدمتها : (هذه كلمات جمعت على قصيدة الشيخ محمد بن على الخطيب الأربلي التى ألفها في علم الأنغام)[17] .
هذا وقد كان يتحاشى الكثيرون أن يدونوا عن الموسيقيين والمغنين ، فلا يذكرون من كان متقنا لهذا الفن لانهم كانوا يترفعون عن ذلك ، ولايريدون أن يطروا به أحداً لأنه يحط من منزلته في نظرهم .. ولم يدروا أن هذا الفن يصلح ككثير من العلوم للخير والشر ، وللفائدة والضرر .. للأداب والخداعة[18] ... وقد وصف بدر الدين الأربلي بـ سيد الجنكيين ، وجنك الة موسيقية يبدوانها : السنج وهى آلة وترية ومما نعرفه عن أواخر أيامه انه كان عند الملك المظفر بماردين ، وقتله مجير الدين حنبرت أستاذ أرسلان الدوادار في 755 هـ / 1354 م والجدير بالذكر إن الملك المظفر كان من ملوك بنى أرتق من السلاجقة ، وكان أخرهم الملك الصالح شهاب الدين الأرتقي الذي خضع لقرا يوسف زعيم قره قوينلو في حدود سنة 812 هـ .[19] إن بدر الدين الأربلي عاش في أواخر عهد المغول وأدرك عهد الجلائريين ، كما يبدو لناذلك من تاريخ أرجوزة الأنغام وهي سنة 729 هـ / 1328 م .

هذه الأرجوزة عثر على نسختها المخطوطة المسماة : (أرجوزة الأنغام) المؤرخة في 22 ذي القعدة سنة 1120 هـ / 1708 م ونشرت في مجلة المشرق باسم (جواهر النظام في معرفة الأنغام) والتسمية الاولى جاء في صلب المنظومة ، وكان صاحبها قد نظمها ـ كمامر ـ في سنة 729 هـ ، وكانت له المكانة المعروفة في هذا الفن ، جاء ذكره في نصوص تاريخية عديدة . وكانت نسخة مجلة المشرق منقولة من مخطوطة مؤرخة سنة 877 هـ / 1313 م وهناك وصفها ولم يقف الناشر على أحوال ناظمها وهو أبو عبدالله بدر الدين (وورد شمس الدين) محمد بن علي الخطيب الأربلي وهذه الأرجوزة . متن متين في هذه الصنعة (الموسيقى)[20] .
إن أرباب الموسيقى والغناء في زماننا لايزالون يجرون على تلك الأنغام التى وردت في الأرجوزة مع إختلافات عرضية . ومن هنا تاتى الأهمية البالغة للأرجوزة التي عنيت الانغام والالحان في تلك الفترة التاريخية . وإتماماً للفائدة لابد من تعريف النغمة (جمعها انغام) فنقول : هي الصوت الساذج الخالى من الحروف . وإصطلاحاً هي : الصوت المرنم به . أو هي مجموعة من الدرجات الصوتية (نغمات) محصورة بين القرار والجواب حسب أحكام سلسلة من النسب طرفاها 1 و 2 ويدعى المقام[21] .

نماذج من الأرجوزة

ونحن نختم هذا البحث عن موسيقي أربيلي ، لابد لنا أن نشير الى عظم دوره في تخليد الالحان أو الانغام في منظومته الشعرية بأصولها وأسمائها وأبحر أنغامها وأدوارها . فيقول في معرفة أصول الانغام :

وأعلم بأن الرست أصل الكلّ عنه تفرعت بحكم العقل
وانه أول ماتفرعا عنه ثلاثة فصارت أربعا

الرست والعراق ثان تابع
وزروكند وأصبهان رابع

ويقول في ذكر ابحر الأنغام الأصولية الأربعة :

ثم لهم أبحر فالأول ذو خمسة معروفة تستعمل
وهى من السيكا الى أن تنختم بالبنجكا والأصبهان قد علم
كرّ دانيا نهفت ثم الباقى كلّ له بحران باتفاق

ولم يسميا وبعض حققا للأصبهان أخرين مطلقا

ويذكر الأبحر الثمانية والمفرعة عن الأصول الأربعة فيقول :

ثم لكلّ نغمة فرعان تفرعت عن اربع ثمان
عن اول زنكلة عشاق للبوسليك والماى العراق
ثم لثالث بزرك راهوى عن رابع نوى حسينى قدروى
فصارت الأنغام اثنى عشر وإضطربوا في الوضع والذي ارى

ثم يستمر في ذكر الأوازاتّ الستة وترتيب الانغام الاثنى عشر وذكر الأنغام الزوائد وبيان تأثير الأنغام في الامزجة من الأخلاق ، ثم يذكرو صية للمطرب وفي خاتمة الرسالة يقول :

صاجها محمد نجل على ناظمها إبن الخطيب الأربلي
يقول هذه غنية لمن عقل وقد نظمتها بيوم أو أقل
وذاك في مرتداد[22] الهجرية تسع وعشرون وسبع ميه
وعدة المجموع في نظامى بيت ومائه مع الختام
وكملت (أرجوزة الانغام) والحمد لله على الأنعام
ثم على خير الورى سلامى ماسرحت سائمة الأنعام

ويعتبر بدر الدين الأربلي أول من ذكر إن الـ (رست) هو اصل المقامات والرست إصطلاحاً هو السلم الطبيعى للموسيقى العربية وقاعدة السلالم الموسيقية العربية المستعملة في هذا العصر . وقد سمي بالرست لانهم كانوا يبتدئون الديوان الطبيعي المعروف بـ (المقامة المستقيمة) . ومقام الرست هو أحد الانغام التى تتفرع منها المقامات العراقية [23]

المصادر والهوامش

1 — ليونارد وولى : وادى الرافدين : مهد الحضارة تعريب احمد عبدالباقي بغداد مكتبة المثنى ص 29 — 30

2 — صموئيل كريمر : الواح سومر : ترجمة طه باقر . مؤسسة فرانكلين : اول اغنية في الحب ص 363 — 369

3 — عباس العزاوى : الموسيقى العراقية في عهد المغول والتركمان بغداد 1951 ص 74

4 — المصدر السابق ص 51

5 — الايقاع : المقصود به : إعتبار زمن الصوت

6 — المصدر السابق ص 18

7 — الرجز : هو اقرب الأبحر الشعرية من النثر . والشعراء اجازوا تغيير قافياتكل بيت من ابيات الرجز ، لكنه يعوض عن ذلك بالتصريع (اي المطابقة بين الشطرين) انظر التفاصيل في ميزان الذهب في صناعة شعر العرب للسيد احمد الهاشمي بغداد 1979 ص 62 — 66

8 — د . عادل البكري : صفى الدين الأرموى . بغداد وزارة الثقافة والأعلام 1978 ص 29 — 33 و ص 73 — 87

9 — عباس العزاوى : الموسيقى العراقية في ايام المغول والتركمان بغداد 1951 ص 39 — 41

10 — الجويني : شرف الدين إبن الصاحب شمس الدين محمد الجويني ، الذي تولى الحكم ببغداد سنة 662 هـ بعد عمه الصاحب علاء الدين وكان شرف الدين قد حكم العراق فترة من الزمن حتى تولى السلطان ارغون المغول العرش فقضى على اسرة الجويني وامر بقتل شرف الدين في سنة 685 هـ / 1286 م . انظر : عباس العزاوي : تاريخ العراق بين إحتلالين (1 / 362 و 338)

11 — عباس العزاوى : الموسيقى العراقية ص 46 — 48 . والسليكو واصلها : البوسليك : احد الادوار او المقامات ودور البوسليك هو نفس مقام اللامي الحالى .

12 — المصدر السابق ص 55 — 60)

13 — الكافية : كتاب في النحو لابى عمر وعثمان بن عمر المشهور بابن الحاجب الكردي المالكي المتوفى سنة 646 هـ

14 — ذيل تاريخ بغداد هو : (المختار المذيل به على تاريخ إبن النجار) انتخبه التقي الفاسي . طبعه عباس العزاوي ببغداد سنة 1936 باسم : (منتخب المختار في علماء بغداد) .

15 — الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى (ت 852 هـ) طبعة حيدر آباد 1348 هـ (57/4)

16 — نشرت بهذا الأسم في مجلة المشرق البيروتية سنة 1913 (ج 12 ص 886) من قبل الأب شيخو اليسوعي .

17 — فهرس خزانة برلين عدد 5515 ص 62

18 — العزاوى : الموسيقى العراقية ص 37 — 39

19 — التاريخ الغياثى : تحقيق طارق نافع الحمداني بغداد 1975 ص 241

20 — العزاوى : المصدر السابق ص 104 / 105

21 — الحاج هاشم محمد الرجب : المقام العراقي بغداد 1983 ص 14 — 15

22 — ولعل الصواب (في مرداد) وهو إسم شهر .

23 — الحاج هاشم الرجب : المصدر السابق ص 188 .